خاتمة

لا يمكن التعرف على ماهية "الأنا" من دون المرور بعمليات المقارنة والمقايسة مع"الآخر". فكرة "الأنا" التي تتضمن المعرفية والقيمية، معاً، تتطلب في الوقت ذاته إطلاق الأحكام والتعريفات المحددة، ووضع فواصل وحواجز بين الماهيات. ويبرز في هذا الصدد مبدآن هما: المبدأ الحواري والمبدأ التناحري.

إن طغيان مبدأ على مبدأ مشروط بالظروف الموضوعية والتاريخية، وعليه، فإن إشكالية العلاقة بين "الأنا" الجمعية (العربية ومن ثم العربية الإسلامية) و"الآخر" على إطلاقه ظلت تراوح بين هذين المبدأين منذ الجاهلية وحتى يومنا هذا.

إلى ذلك ، فإن النظرة إلى "الأنا" ليست مطلقة ولا مقدسة ولا نهائية، فهي متحركة ودائبة التغير إلى حدّ كبير، فـ "الأنا" ليست ما تعتقده الجماعة عن نفسها، وإنما تتأثر هذه النظرة بما تعتقده الجماعات الأخرى عنها، وتتأثر كذلك بمجريات تاريخ الجماعة وإنجازاتها ومقارنة ذلك بما فعلته أو أنجزته الجماعات الأخرى.

و"الأنا" كذلك كثيراً ما تتصدع وتتشقق على المستوى التاريخي والاجتماعي والنفسي والفلسفي، أيضاً.

"الأنا" – وبغض النظر عن مدى الحقائق أو الأوهام التي تكوّنها وتعمل على إنجازها في صورتها النهائية – هي تراكم للخبرات والتجارب والاجتهادات التي تحددها مجموعة عوامل زمانية ومكانية، ومن هنا، فإن "الأنا" مكان أيضاً، وبالتالي هي لغة. "الأنا" تحتاج إلى ما يبررها ويثبت وجودها على المستوى الداخلي النفسي، والخارجي الذي يتخذ صفة الرموز والأشكال.

ولهذا، فإن حماية "الأنا" والحفاظ على حدودها ومقوماتها وعواملها جزء من عملية معقدة وطويلة ومستمرة، وتتخذ أشكالاً عديدة ومتنوعة، وهي عملية ضرورية جداً على المستويين العقدي والسيكولوجي تدخل في عملية الاستقرار النفسي والجمعي على حدّ سواء. إن تعريف "الأنا" عملية مهمة في إنجاز الحضارة وفي الغايات النهائية للفرد والجماعة، ومن هنا كان المنجز الحضاري، مهما كان، يتخذ معنى نهائياً تحدده الجماعة حسب تعريفها لنفسها.

وفي حالتنا الفلسطينية، فقد تفجرت هذه المسألة في اللحظة التي انكشف فيها المشروع الصهيوني القائم على فكرة الاقتلاع والتهجير ومن ثم الإحلال الاستيطاني، أي أن هذا المشروع يقوم على النفي والإنكار والإلغاء، وبلغة أخرى، فإن هذا المشروع لم يرَ في الفلسطيني سوى "جثة أو رماد"، الأمر الذي دفع الفلسطيني إلى تبني هذا المفهوم، أيضاً، وهو مفهوم ظل يحكم المشهد حتى هذه اللحظة، على الرغم مما طرأ عليه من تغييرات أو اجتهادات أشرنا إليها في هذا البحث.

علاقة النفي والإنكار والإبعاد هي التي حكمت العلاقة بين "الأنا" الفلسطينية و"الآخر" الصهيوني، ذلك أن كليهما يتنافس للحصول على الأرض، من جهة، وعلى ثقافة الأرض، من جهة أخرى. كلا الطرفين يكتب تاريخاً مختلفاً للمكان ذاته، وبدلاً من أن يشكل المكان الواحد نقطة بداية أو علاقة تشاركية، فقد تحول المكان إلى نقطة الخلاف الأولى والأخيرة، وقد استدعى هذا الخلاف نقاطاً أخرى للاختلاف عليها، أيضاً، بحيث صار التناحر بين الطرفين على كل شيء، وهو ما شكل الأساس الوجداني والثقافي لتحديد العلاقة بين "الأنا" الفلسطينية و"الآخر" الصهيوني الذي صار – للأسباب السابقة- نقيضاً بكل معنى الكلمة، وهذا بالتالي ما وجد له انعكاساً في الحمولة الثقافية التي تم التعبير عنها بوضوح، حيناً، وبمواربة، حيناً آخر.

هذه العلاقة التي تأثرت بظروفها الموضوعية شققت مفهوم "الأنا" إلى "أنوات" عديدة، كما صدعت "الآخر" إلى أقسام ومستويات في محاولة للالتقاط "المشترك" في خضم هذا الصراع، أو في محاولة لرؤية "الإنساني" في هذا الصراع الذي يجد مسوغات التأبيد بكثرة .

إن تقدير "الأنا" أو "الذات" واحترامها يقومان على فكرة الإنجاز بمعانيه كلها، ولهذا، فإننا نجد أن النظرة الجمعية "للأنا" الفلسطينية تعاورتها نظرات تراوحت بين التقديس، من جهة، والجلد، من جهة أخرى، حسب مستويات الإنجاز والتقدم والانتصار.

في هذا البحث، حاولنا ملاحقة مفهوم "الآخر" – على تعدد مستوياته – في مرحلة تاريخية مهمة من تاريخ الشعب الفلسطيني، ونقصد بها تلك الفترة التي تلت اتفاق أوسلو العام (1993) وحتى العام 2004، حيث كان من المفروض أن تتغير المفاهيم والتنميط والنمذجة، وأن تحدث عمليات على مستوى الوعي تقرب "الآخر" وترمّم "الأنا"، هذا الهدف سحب معه استطرادات وتفاصيل كان لا بد منها لفهم العلاقة مع "الآخر" في مختلف مراحل التاريخ العربي، فكان البحث على النحو التالي :

المدخل : وفيه رصدنا التحولات السياسية التي أصابت المجتمع الفلسطيني منذ الخامس من حزيران العام (1967) وحتى العام (2004)، أي منذ لحظة الاحتلال وانهيار مؤسسات المجتمع الفلسطيني الصناعية والتجارية والاقتصادية والسياسية، وتحول أفراده في معظمهم إلى عمال مياومة أو مرتبطين اقتصادياً بالاقتصاد الإسرائيلي. رصدنا في هذا المدخل التحول الكبير في بنية المجتمع الفلسطيني، وتغير مراكز القوى فيه، واختلاف الأولويات السياسية والوجودية، وكذلك تحول التمثيل السياسي والنشاط الكفاحي وانطلاق الثورة المسلحة التي وجدت شكلها الشعبي في الهبات الجماهيرية وذروتها في الانتفاضة الأولى العام (1987)، ثم ما تلا ذلك من مفاوضات انتهت بتوقيع اتفاق أوسلو الذي أدى إلى انسحاب قوات الاحتلال من المدن الفلسطينية الكبرى مع بقاء الاحتلال وهيمنته على ما عدا ذلك، ثم ما كان من أمر السلطة الوطنية الفلسطينية التي رأت في اتفاق أوسلو خطوة على طريق الاستقلال، في الوقت الذي رأت فيه "إسرائيل" أنه اتفاق أمني يحمي مدنها وقراها ومواطنيها. هذا الاختلاف في فهم الاتفاق أدى في نهاية الأمر إلى انفجار انتفاضة أشد وأعنف العام (2000).

هذه التحولات الكبيرة وذات الإيقاع السريع وجدت أصداءها في القصيدة الفلسطينية من حيث تحول هذه القصيدة إلى:

- تصديها اليومي والمباشر لإجراءات الاحتلال وسياساته.
- انفتاحها على الأفكار والأيديولوجيات.
- قيامها بواجبها الثوري والنضالي.
- رؤية الجماعة أو "الأنا" الجمعية كرزمة واحدة من دون الخوض في نقاط الاختلاف أو الإشكالي.

أما بعد اتفاق أوسلو، فقد تخلصت القصيدة من انصياعها للسياسي أو لـ"الجمعي"، وصارت أكثر "ذاتية" أو فردية، ولهذا تميزت هذه القصيدة بما يلي:

1. انفتاحها على الأسئلة الكبيرة واستيعابها السجالات العقدية والفلسفية المختلفة.
2. بروز قضايا وأمور لم تكن من قبل، كالحديث عن الفساد والخراب والانحراف.
3. التميز بروح النقد والاحتجاج.
4. الإشارة إلى ضياع الحلم وانكسار النموذج.
5. وبهذا ظهرت قصيدة مختلفة كلياً تتحدث عن جلد الذات والقسوة عليها وحتى الإشارة إلى الهزيمة.

وبهذا المعنى، فإن القصيدة التي ظهرت بعد اتفاق أوسلو كانت مختلفة إلى حد كبير عما سبقها من قصائد، وسبب ذلك تلك النظرة إلى "الأنا" مقابل "الآخر" الذي انتصر.

الفصل الأول: وفيه تمت متابعة وملاحقة العلاقة مع الآخر كما تم التعبير عنها في الثقافة العربية، إذ أشرنا إلى ما يلي :

1. إن الإسلام أسقط "الآخر" القومي أو أي "آخر" سوى "الآخر" الديني، وهو ما حكم النظرة العربية الإسلامية إلى الآخر في كل العصور.
2. على الرغم من ذلك، فإن علاقة "الأنا" الجمعية بالآخر تميزت بالتعددية والاختلاف والتنوع حسب فترات القوة والازدهار والضعف والضمور.
3. شكّل "الآخر" محرضاً دائماً لردات الفعل العربية الإسلامية، وذلك من خلال الترجمة، مرة، أو الحروب مرة أخرى، أو الاختلاط أو التجارة أو الاحتكاك الإنساني.

أما في الشعر العربي فقد ظهر "الآخر" على النحو التالي :

1. الإعجاب بإنجازات "الآخر"، كما عبر عن ذلك الجاهلي في شعره.
2. ظهور "الآخر" الديني في صدر الإسلام.
3. ظهور "الآخر" الداخلي في العصرين الأموي والعباسي.
4. ظهور "الآخر" الديني القومي في حروب الفرنجة.
5. ظهور "الآخر" الغربي المتفوق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.
6. ظهور الإشكالية في العلاقة مع "الآخر" المستعمر، من جهة، وحامل الحضارة، من جهة أخرى.

الفصل الثاني : وفيه تتبعنا صورة "الآخر" في الشعر الفلسطيني منذ بداية القرن الماضي وحتى تاريخ البحث، وفيه ظهر أن "الآخر" بالنسبة للفلسطيني كان الصهيوني، وقد تم التعبير عن ذلك شعرياً على النحو التالي:

أ- ظهرت صورة "الآخر" على أنه اليهودي وصاحب الصفات الكريهة، كما تم التعبير عنها في الإرث الشعبي والديني، وكان هناك رفض كامل وشامل لهذه الصورة.

ب- هناك من حاول التفريق بين اليهودي والصهيوني، وأن الصهيونية تخدع اليهود وتوردهم موارد الهلاك، وتم تصوير الصهيوني على أنه مرتبط بالاستعمار .

ت- بعد العام (1948)، اختلفت صورة اليهودي حسب مكان وجود الفلسطيني بعد شتاتهم، فصار "الآخر" الصهيوني يهودياً حقيراً، أو استعمارياً ليس إلاّ، أو مجرد مخدوع من طغمة حاكمة تأخذه إلى الهاوية.

ث- بعد حرب (1967) واحتلال كامل الأراضي الفلسطينية، ظهرت بوادر ومؤشرات تصوير اليهودي على أنه مثلنا؛ يرغب في السلام والتعايش، وصُوّر من الجانب "الإنساني" فيه، وتمت بعد هذا التاريخ انقلابات حقيقية في صورة اليهودي.

ج- تعززت الاتجاهات التي ترى في اليهودي شريكاً وليس نقيضاً، وقد قاد هذا الاتجاه **محمود درويش** بالذات، وهكذا صُوّر اليهودي على أنه تائه وبكّاء ويبحث عن ميناء ويريد أن يفهم ويُفهم.

ح- بعد اتفاق أوسلو العام (1993)، تعددت صورة "الآخر" تماماً. فلم يعد "الآخر" النقيض فقط الذي اختلفت صورته وانتقل من مرتبة إلى مرتبة، بل هناك "آخرون" كثر هم "الآخر" الذاتي والفلسفي و"الآخر" السياسي و"الآخر" صاحب السلطة و"الآخر" الاجتماعي والفكري.

خ- وعليه، فإن "الآخر" الذي كان مرفوضاً على الإطلاق بداية القرن الماضي أصبح في بداية الألفية الثالثة ملتبساً – على أهون الفروض وأبسطها -، وقد تم ذلك من جهتين: الجهة الأولى :

تشقق "الأنا" وتبخيسها ذاتها، أما الجهة الثانية: فقد كان هناك ارتباك واضطراب واختلاف في التعامل مع "الآخر" والنظر إليه، والذي صار يراوح بين منزلتين: النقيض أو الشريك.
د- ولكن على الرغم من هذا الالتباس أو الارتباك، فإن النظرة النمطية للمحتل ظلت هي النظرة الأكثر قبولاً وحتى الأكثر انتشاراً. وعلى الرغم من أن قصيدة الشعر بعد اتفاق أوسلو تميزت بأسئلتها المحرجة – دليل الحوار الداخلي –، فإن صورة "الآخر" النقيض ظلت تشكل الخلفية الكبرى لهذا الحوار.

الفصل الثالث : وفيه تم التطرق إلى جماليات القصيدة وأساليب الأداء الفني وكيفياته، إذ ظهر أن تلك القصيدة – وبسبب من وظائفها الاجتماعية والتاريخية – قد تعددت أشكالها، وتم الانتقال من الغنائي إلى المسرحي، ومن الفردي إلى الأوركسترالي، وظهرت هناك أشكال مختلفة تراوحت بين الومضة والقصيدة التي تشمل الديوان كله، هذا بالإضافة إلى انفتاح القصيدة لغة وصورة وموسيقى على ما لحق بالقصيدة العربية والعالمية من تغيرات وذائقة.
وقد استفاد الشاعر الفلسطيني من التيارات الحديثة والأساليب الجديدة في كتابة قصيدته من حيث الإيقاع والموسيقى والتفعيلة، ويمكن القول في هذا الصدد إن القصيدة الفلسطينية بعد أوسلو تماثل ما تم إنتاجه في العالم، إذ صار بين أيدينا قصيدة حديثة بكل المقاييس، بإيقاعها المتعدد .. النثري والموسيقي، وكذلك بتعلقها بطموحات فنية كتحويل القصائد بجمعيها إلى كيان لغوي جمالي، تراد لذاتها وليس لأهدافها.
بعد هذا الاستعراض المكثف، فإن استخلاصاتي يمكن إيجازها بما يلي:

1. لم أستسلم ولم أستنم لمنهج نقدي واحد بعينه، من منطلق أن الظاهرة الشعرية الفلسطينية ظاهرة خاصة تتعلق بتعدد الأمكنة، وتعدد الأصوات، وتعدد المرجعيات، وعدم ثبات المجتمع أو بنيته التحتية. ولهذا، فقد اعتمدتُ النقدَ الثقافي الذي يستفيد من كامل الحمولة الثقافية المعرفية لفك مغاليق النص الشعري ومقاربته وإدراك أهدافه وجمالياته. وقد أشرتُ في كثير من المواقع إلى ضرورة "ميلاد" نقد خاص يناسب فهم الشعر الفلسطيني من منطلق أن النص يخلق نظريته، وليس العكس.
2. رأيت أن "الآخر" على إطلاقه شكّل دائماً المحرض "للأنا" الجمعية العربية الإسلامية على الرد والمبادرة منذ الجاهلية وحتى اليوم.
3. رأيت الإسلام وحده هو الذي حدد "آخرنا" الديني، فيما لعبت التقاليد والأعراف واللغة العربية "الآخر" العرقي والقومي.
4. رأيت أن فهم "الآخر" أو الحوار معه كان من مميزات عصور القوة والنصر، فيما كان الميل إلى الانغلاق وعدم الحوار معه في عصور الضعف والانكماش.
5. رأيتُ أن الحوار مع "الآخر" كان شكلاً من أشكال الحوار مع الذات، وهو ما عبر عنه بعض الرحالة مثل **ابن جبير**، وبعض الفلاسفة مثل **ابن رشد**، وبعض كبار المثقفين مثل **الجاحظ**.
6. رأيت أن النظرة إلى "الآخر" لم تكن مطلقة ولا عامة، وذلك بسبب من الثقافة الدينية الإسلامية التي لم تتميز بالعنصرية، ولهذا، وجد "الآخر" مكاناً له في صميم الثقافة العربية الإسلامية.
7. وبالنسبة للفلسطينيين، فإن "الآخر" كان دائماً هو "الآخر" الصهيوني الذي صُوِّر طيلة الوقت على أنه المحتل والغاصب.
8. فرّق الفلسطينيون بعمق ونضج ومسؤولية بين اليهودية والصهيونية، ولم يقعوا في أحابيل الردود الغربية التي سادت في القرون الوسطى والقرنين الثامن عشر والتاسع عشر مما

يسمى كراهية اليهود الأبدية أو اللاسامية. رأى الفلسطينيون في "الآخر" الصهيوني مجرد خادم للاستعمار الأوروبي. ولكن هذا لم يمنع من الاستفادة من التراث الديني والشعبي في النظرة العامة لليهودي كخادم للمال وتاجر للجنس.

9. عبّر الشعر الفلسطيني بكفاءة عالية عن مجمل الاتجاهات الوجدانية الشعبية والفكرية والعقدية المتعلقة بالنظرة إلى "الآخر" اليهودي والصهيوني. وعلى هذا، فقد اختلف الشعراء الفلسطينيون في طريقة رؤيتهم لهذا "الآخر"؛ فهو محتل، وهو مخدوع، وهو ظالم ومظلوم، وهو إنسان يمكن الوصول معه إلى نوع من الاتفاق.

10. أرى أنه بسبب من الهزائم المتكررة والانهيارات الهائلة التي لحقت بالأمة، تحولت صورة "الآخر" شعرياً، من كونها نقيضاً إلى شريك محتمل، من خلال النفاذ إليه من عملية البحث والتنقيب عن المشترك الحضاري والإنساني والديني.

11. ورأيت أن اختفاء المكان أو غيابه جعل من القصيدة الفلسطينية متعددة الاتجاهات والمستويات، إذ لم تثبت القصيدة الفلسطينية في مكان "حقيقي"، وإنما في مكان متخيل أو مشتهى، ولهذا، فقد تميزت القصيدة الفلسطينية، عادة، بالحلم والمثال والنموذج. غياب المكان قابله ميلاد مثالي له في القصيدة.

12. ورأيت أن القصيدة الفلسطينية اختلفت جمالياً بسبب تعددية الآباء واختلاف الأمكنة. ورأيت أن ليس هناك تاريخ تطور للقصيدة الفلسطينية، إذ إنها جابهت انقطاعات تاريخية بسبب التشتت والافتراق.

13. ورأيت أن القصيدة الفلسطينية لم تتعدَّ طرح الأسئلة وحوار الذات والجرأة في النظر إلى الداخل إلا بعد الهزائم الكبرى، كالخروج من لبنان والانتفاضة الأولى، وكذلك بعد اتفاق أوسلو، حيث صارت القصيدة الفلسطينية تحاور ذاتها كتعبير عن العلاقة القلقة والمعقدة مع "الآخر" المنتصر.

14. وأرى أنه على الرغم من سيادة النظرة النموذجية لـ"الآخر" الصهيوني، فإن هناك اتجاهاً آخر يرى فيه شريكاً يجب التعامل معه بحكم الواقع.

15. ورأيت أن القصيدة الفلسطينية ظلت – في الأغلب الأعم – قادرة على التثوير والتعبئة والشحذ، على رغم كل ما لحق بها من أسئلة وإرباك.

16. ورأيت أن القصيدة الفلسطينية، وخصوصاً بعد اتفاق أوسلو، صارت دون مركز، وتحتفي بذاتها، وترغب في النزول عن دورها الأساسي الجماهيري، وأنها أخذت تذهب نحو الهامش والمبتذل والحلمي والكابوسي والإيروتيكي.

17. ورأيت أن القصيدة الفلسطينية بعد اتفاق أوسلو تنازلت عن البطولي من أجل الشخصي، وعن العام من أجل الذاتي.

18. وأرى أن تعدد موضوعات القصيدة بعد اتفاق أوسلو كان دليل قدرة "الآخر" على فرض أولوياته، من جهة، وعلى ارتباك "الأنا" في تعريف ذاتها في تلك المرحلة، من جهة أخرى.

19. أرى أن القصيدة الفلسطينية بعد اتفاق أوسلو عبرت عن "أنا" متعددة؛ دليل الحيرة والاضطراب، في الوقت الذي عبرت فيه عن "آخر" متعدد، أيضاً؛ دليل اتساع الرؤية، من جهة، والتباس المشهد وتعقيده، من جهة أخرى.

20. أخيراً، أرى، بكثير من الأسف، أن صورة "الآخر" النقيض، وخلال قرن واحد، تحولت من "آخر" مرفوض جملة وتفصيلاً – بسبب أطماعه – إلى "آخر" يجب البحث عن نقاط التقاء معه من خلال الاعتراف له بحق ما في هذه الأرض. نتيجة مؤسفة لتاريخ يشهد أعمق هزائمنا وأقواها.